سيف يد

حين استقر على الآن : بدأت الرعشة . ارتعاش الجسد غير مهم ، الشفاه لن يستعملها ، الأسنان لو حتى اصطكت سيكتم الصوت. المهم يده . أصابعه ، قبضته . إنها ترتعش كما لم يحدث لها أو له فى حياته.ليس ارتعاشا فقط ، لكأنه الشلل الرعاش ، فهو بالضبط وساعة قرر ليس فى بدنه ذرة قوة . لو دفعه طفل حتى لسقط فليكن القرار تم . فلكن تم . ما فائدته والتنفيذ هو القرار . لحظة التنفيذ هى الفيصل بين من كان ومن يريد أن يكون . قط لم يفعلها . قط لم يفكر فى فعلها . وإنما عاش يرفضها ، ينبذها ، يشمئز منها . الآن قد أصبح تماما بجواره . الرعشة تفضى إلى ما لا نهاية . اصفر وجهه لابد . القرار يملأ ملامحه . واضح . محدد . صارم ، لم يبق له إلا التنفيذ ، والرعشة تلغى كل شيء . الدهشة تأتيه من العين الأخرى . دهشة تكبرها وتجسمها عدسات النظارة . لو تراجع

ضاع . فلتكن المرة الأولى ، ما أكثر ما نفعل أشياء نبدؤها لأول مرة دون أن يصيبنا كل هذا الرعب . فليضع العمر كله فى الذراع . ولكن الذراع ثقيل ككتلة مسلح . العمر أثقله.وعليه ، رغم ارتعاشه ، أن يدفعه إلى أعلى ، مرتفعا به إلى أقصى ما يستطيع ، ليفعلها لمرة واحدة فى عمره ، وليضع العمر كله فى الذراع ..

ارتفاعة حاجب ، لمحة نكوص ضاع التردد فجأة ، فجأة أظلمت الأشياء ، تلاشت ، تمازجت وتداخلت وأصبح مع الأشياء كائنا كتلة لا يعرف أين هو منها أو أين هى منه . رعد أرعد . برق توهج . المؤكد أن اليد ، قوية ، مدوية ، هبطت . الرعشة تحولت ، حالما هوت ، إلى ثقل صاعق . لأول مرة فى حياته تصطدم كفه بصدغ رجل . ذلك الرجل . حتى وهو طفل لا يذكر أنه صفع أحدا أو صفعه أحد . الدوى استمر ومستمر . الارتعاش امتلأت به الآذان إلى درجة الصمم . فتح عينيه . الرجل بدا أبعد ، وجهه أصفر بكثير عما يجب ، أثر أصابعه على الصدغ السمين كالمرسومة بمداد أبيض ، عيناه غاصتا فجأة للداخل ، غاصتا أكثر بكثير مما تسمح به الملامح ، قامته الطويلة بدأت تقصر ، وماضية فى القصر — هوسة فرح اندلعت . عفريت جنى فى داخل نخه عربد ، قبل أى

شيء آخر كان نفس ذراعه تلقائيا وإلى أعلى بكثير قد ارتفع . قامته هي الأخرى بدت أطول ، أضخم ، ولا نحة لأي ارتعاش .

بكتلة ثقة مباغتة فاجأته ، هو أولا أهوى . راعى أن تجيء أكثر إحكاما ، أن تصل هدفها وعيونه مفتوحة تستمتع وهي ترى أين وكيف تصيب . مؤلمة تماما جاءت . مؤلمة له . فكأن أصابعه ارتطمت بكتلة من حديد . غورت أصابعه في العظم . أظافره مزقت الجلد . تلوى بالألم . مكتوما صدر عنه الصوت . مكتوما أيضا صدر عن الرجل شيء ، ليس كلاما ، ليس استغاثة ، مجرد صوت ، ذعر على هيئة صوت ، ذعر شخص صادر عن حنجرة أصابها نفس الذعر . امتلأ بدنه بالثقة ، بلغت روحه عنان السماء . كور قبضته ، ثنى ذراعه ، سيكيلها له في فكه . مذعورا سبقه الرجل ، من كتفه دفعه ، تطوح ذراعه ، جاءت اللكمة في العين تماما . أحس بظهر أصابعه طراوة كرة العين ماذا لو كانت انفجرت . السجن معناها . فليكن ، ليكن حتى الشنق ، حتى الشنق هو مستعد له . سيقتله . لن تحول بينه وبين قتله قوة . مهما جاع الأولاد فسيظل حمادة على الأقل فخورا به . جرى الجبان والتف حول المكتب . يريد أن يهرب . فليهرب ، وليحاول شنكلته . ولكن الرجل زاغ وفتح

باب الدولاب وجعل منه ساترا اختبأ خلفه . من الدولاب سحب أيضا المسطرة الكبيرة . كالسيف شرعها . الشتائم من فمه بدأت تنهال ، وكل مرة تزداد شتائمه سفالة وإيلاما . رفع القدم ، تراجع للخلف ، استعان بالسيد البدوى وبالقوة كلها ركل الضلفة ، توالت الآهات . آهات . شتائم آهات . آهات شتائم . عويل من السباب . خذ . ركلة أخرى . أعنف أقوى أشد إيلاما . عشر سنين يا مجرم . عشر سنين أشكو لطوب الأرض وأتحمل . تكرهنى وأكرهك . تمقتنى ولا أطيق حتى طريقة تفصيلك لبدلك . وكلانا فى حجرة واحدة . الوجه فى الوجه ، والكره يملأ الأعماق ، وعلى الملامح العليا تطفح البسمات والمجاملات . ولا مرة تبادلنا غيرها . عشر سنين وأنا أشتمك للناس جميعا وأشكوك . وتشتمنى أنت لبعض الناس للمسكين بمقادير الناس وتشكو منى . وعمرى ما واجهتك بشىء أقصى من تحديقة وعيد أخرس ، إذا أجبتنى بمثلها ، أسحب تحديقتى فورا وأعود أغلى وأبسم وأصمت . أحيانا للكارثة ، من فمى بدل الشتائم تنطلق كلمات الملق . بخبثك تعرفها وتدركها وتعلقها أمامى ترينى فيها نفسى وأنا متلبس بالخضوع لك ومسح الجوخ والرياء . وترضى ، وتبتسم ، بل وتتقمص الدور إلى

حد أن تتصدق على أنت الآخر فى النهاية بكلمة نصف نفاق ، إذ تمتدح بنصفها شيئا تعرف وأعرف ويعرف الناس جميعا أنى لا أتمتع به . ناعم أنت وذكى ، ودائما على حق ، ودائما بالقانون تخرج على القانون ، وتستطيع دائما أن تحيل ظلمك عدلا وقاعدة ، وتحيل حقى وعدلى إلى خروج على العرف والقانون . حتى لو لم أخطىء ، تستدرجنى حتى أخطىء . فإذا بادرت بالتصحيح ، أطلت لى الحبل لاستدراجى لأخطىء أكبر وأكثر . تكرهنى مثلما أكرهك ولكنك أقدر على كتم الحب والكره والحقيقة ، واليوم قررتها ، قررت ، من حمادة وليس من أبى أو خالى أتعلم ، ويا جبان لن تنفعك المسطرة . أبدا لن تنفعك .

ناحيته اندفع . كالقط الآدمى قفز . هوت المسطرة بحدها الرفيع على أم رأسه . تخدر الجلد مكانها وانفلق العظم لأن السائل الذى يخترق جذور شعره لابد هو الدم . بيسراه قبض على المسطرة . أمسكها . استمات الآخر . لواها . انكسرت . أمسك بالجزء المكسور كالخنجر وصرخ هامدا وهو يغرسها فى كتفه . تمزق القميص وانبثق الدم الأحمر . حمرته فاقعة وكان دم الغضب . دم قليل ولكنه لون صدر القميص كله . مرآه الأحمر متغلغل فى الأبيض

آثاره . كانا قد اقتربا حتى التصقا . فليأخذها إذن . بجانب الرأس كما سمع من حمادة ، صوبها . (روسية) اصطدمت بفكه . سمع بأذنه اصطكاك العظم بالعظم . أسنانه هو أطبقت على لسانه وعورته . وتملح ريقه بطعم الدم . عشر سنوات ولا عشاء يمر دون واقعة يحكيها للزوجة عنه وأمام الأولاد الصغار ، حتى كبروا ، وهو لا يزال يحكي ، كبروا . بالعقل توصيه . لأكل العيش تنبهه ، تهدئه ، تدلك غضبه ، تتركه يمارس عليها الشخط والزجر ويتنفس . هنا فقط يتنفس . تنفس ذليل يعرف ولكنه بدلا من انفجار المخ يفعل. حمادة السبب . أنت السبب يا حمادة . الواقعة بسيطة وكل يوم تجرى . خناقة عيال . هكذا يسمونها . خناقة لا يطيق فيها ابنه ضاربا أو مضروبا . ولقد جاء هذه المرة ضاربا ، وجاءت بالمضروب أمه . وكان لابد من عقاب عاجل . وفر حمادة واختفى حتى جاء الليل وعاد ليجده ساهرا ينتظره . قبل أن يرفع عليه (الحذاء) طالبه بأن يمنحه الفرصة . هكذا العدل . ألم يعلمه أن هكذا العدل . أحرج . اترك الجزمة . استمع لمجرد الشك فقرار ضربه كان لن يتغير حتى لو الحق معه . وإيمانه الراسخ أن الضارب والمضروب حيوانان بهيمان لا يستحقان قلب الإنسان . هكذا سمع أباه يقولها مرة وسمع خاله كثيرا ما يضمنها حكمه وأمثاله : أنا أكرهه فضربته . ولماذا الكره ؟ لأنه لئيم خبيث يشيع عني لدى الأولاد أني لص : لماذا لم تشكه ؟ لمن ؟

لأهله ؟ وهل يعاقب الأهل ابنهم من أجل أولاد الغير ؟ من يعاقب الابن المخطئ إذن ؟ أنا . أنت ؟! أجل أنا . وكيف إن شاء الله ؟ ناولته (سيف يد) فلكزنى فضربته بالبونية وفى نافوخه فعضنى وحاولت إمساكه فطلع يجرى فشكلته بمقص ، وقع بركت فوقه ولم أتركه إلا بعد أن قال : أنا كذاب .

مد يده إلى الحذاء وقد جاء وقت العقاب ، ليست هذه طريقة لمعاملة اللئيم ، ولا مواجهة من نكره .

أمال كنت عايزنى أعمل إيه يا أبى ؟

اشتمه مثلما شتمك .

ولكنه لا يشتمنى أمامى . جبان ماذا أفعل ؟! .

وهل يكون الرد بسيف اليد واللكمة .

وقذفه بالحذاء . أصابه فى ساقه وجعله يعرج حتى بلغ الفراش . ولكنه هو لم ينم . أبدا لم ينم . سيف اليد والمقص والبوانى كانت تتأوج فى سقف عيونه المغمضة وتتداخل وفجأة وبين الحين والحين يندلق فى سماء العين المغمضة ماء وذلك الوجه السمين المربرب الناضح أبدا بالعرق .

أصبح بينهما المكتب مرة أخرى ، نفس المكتب الذى كان دائما بينهما فى الصباح هما على طرفيه ممتلئان بابتسامات الزيف وفى العمل يفصل بين المقالب التى يدبرها لمرؤوسه ، والعرائض والشكاوى

المجهولة التي يدبرها لرئيسه . والآن هو موجود ولكنه لا يحول بينهما ، بعده انطلقت صفعة يده كلها بوجهه ، بأصبع واحدة فقط صفعه ، فالآخر كان قد استدار وامتلكه وإلى صدغه وجه صفعة قوية مليئة متمكنة . أبرقت الدنيا في عينه وصفرت أذنه . أيكون هو الآخر كان ينتهز الفرص لينفجر . هذه (بونية) تصيب أذنه ، من المؤكد خرقت الطبلة . يا نذل تأخذني على خوانة ـــ هكذا سمعه . خذ وخذ وخذ وخذ . لم تعد علقة نوى أن يعطيها وينفض يده منه ومنها أصبحت معركة تكاد تتعادل ، الآن فقط يتأكد أن الآخر ليس جبانا بالدرجة التي كان يتصورها . ذعره الأول أصبح واضحا ، إنه ذعر المفاجأة ليس إلا . الآن هو يطلب العراك . وعليه عقد العزم . ما تصوره هكذا أبدا ، طول عمره يراه فأرا رعديدا لا يحتمل الصمود لمجرد سباب وإن كان يبدو في قوة الأسد . ولو . حتما سيأكلها . فأرا أو أسدا سيخرج منها بعاهة مستديمة على الأقل . بجماع قوته لكمه . انثنى الآخر وتأوه . وتلذذ . بركبته رفعها كالطلقة شلفطت وجهه وأسالت الدم من أنفه . اعتدل . طار صوابه واعتدل . عيونه يشع منها بريق الشر والجريمة . كالثور الهائج أقبل ، إلى اليمين زاغ منه . ولكن لأن ذراعه أطول ناله وبضربة من قدمه هوى على الأرض كالكتلة . المقص أصابني أنا يا حمادة . فلم أكن الأسرع . الركلات تنهال كالمطر ، الجبان ، بالحذاء . يسددها

لوجهه ، فقد العقل ، فقد الإحساس بالضرب والألم . همه أصبح أن يغلب ، لو مات حتى قد غلب أو غالب لما همه . المهم أن يخرج من الصراع غالبا ، ولو ممزقا إربا يخرج ، أمسك بالقدم ، الضربة إلى صدره ، بشدة أمسكها بيديه وبقوة عظمى ثناها . سقط الآخر يتلوى ، يتأوه ، اندفع يرقد فوقه وبيديه يحيط رقبته السميكة عازما أن يكتم للأبد أنفاسه ، اختنق الوجه بالاحمرار وبحلاوة الروح دفع أصبعه السبابة فى عينه . المجرم . لنكن مجرمين أصبحنا . إما قاتل أنت أو مقتول . الرعب أمده بقوة أعظم . تخلص من الأصبع ، رعب آخر جعله بانتفاض يديه بعيدا حتى ليرتطم رأسه بحامل الخزنة بل وتسقط على قدمه . تماسكا ظلا يتضاربان ، حتى لاحت فرصة وأمسك لحم كتفه بأسنانه . بأنيابه ، بكل ما يملك من حقد وغيظ ، وجنون وفتوة أنشب فكيه فى لحمه . أحس بطعم اللحم نفسه من خلال حرف البدلة ، صراخ آخر مكتوم لم يعد يعادله إلا ضرباته . ضربات وحش لا يرحم ، عينه يحس بها أغلقت تماما و لم يعد يرى بها ، أنفه تورم وبالتأكيد تدشدش ، دم الآخر سال ، وبدأ يصرخ وبدأ هو الآخر يصرخ ، الضرب اشتد وعنف وتشعب أهو يضرب أم يضرب ، أهو المهزوم أم المنتصر ، كل ما أصبح يحسه أنه متعب وأن التعب يتكاثر عليه حتى لم يعد يقوى على أخذ النفس . أصبح همه كله أن يتنفس . لم يعد يتنفس . الهواء لا يدخل صدره . غير

قادر أن يحرك الضلوع ليدخل الهواء . على الأرض تمدد بغير حراك ، سكون ، وهناك حين استطاع بطلوع الروح أن يعود يلتقط النفس ، بدأ يدرك أن الآخر أيضا لا يضرب ، وبنظرة لمحه مكوما أسفل ركبته ، مغمض العينين ، بدأ بالكاد يلهث بالنفس ، كتلتان من الأنسجة المبعثرة والملابس الممزقة وبقع الدم ممددتان على الأرض فى مكتب ليس به سواهما بعد ظهر ذلك اليوم .

من مكانه راح يرمق الآخر . عشر سنوات وهو بغير الحقد لا يرمقه . من مكانه راح ينظر إليه ويتأمل . إنه لأول مرة يرى قاع رأسه ويدرك أن الشعر فى منطقة الرأس خفيف تماما ، يكاد يكون بلا شعر .

ووجد نفسه يتمتم : من كان يتصور هذا . بعد عامين على الأكثر سيكون الصلع قد شمل رأسه كله . مسكين .